قراءة ودراسة في النثر العربي الحديث

الدكتور
فاضل محمد عبد الله
رئاسة جامعة الكوفة/مركز دراسات الكوفة

المقدمة :

هذا بحث أو دراسة في بعض نواحي الأدب العربي الحديث أردت فيه الخوض في بعض الفنون الادبية المقال ، المقامة ، الفنون الادبية الجديدة ، الرواية ، وكنت اود ان اتطرق الى المسرحية والقصة لكنني اكتفيت بهذه الموضوعات لعلاقتها بالمقال الادبي ، ولان اكثر النقاد تعرضوا لها في هذا الإطار لما وجدوه من الترابط لاسيما في موضوعات مثل المقامة والرواية كما اشرت الى اهم المفكرين والادباء في هذا الصدد متناولا شخصية المويلحي كاتبا ومحمد حسين هيكل كاتبا وان كان هيكل الى الرواية اقرب من فن المقال ثم اني عرضت لكتب الادب المهمة لانها كانت مقالات في مختلف الموضوعات تاركا الامر لتوجيهات الخبراء للاستفادة من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم .

والله ولي التوفيق

المبحث الاول

أ- تعريف المقالة

ان التعريف مطلب صعب دائما وهو اصعب مايكون في ضروب الانتاج العقلي لان التعريف لايخلو من التحديد والعقل البشري لايخضع بسهولة للحدود والقيود لهذا لم يكن من السهل ان نعرف المقالة تعريفا يشمل جميع ضروبها وانواعها ولفظ ((مقالة)) من الناحية اللغوية لايساعدنا كثيرا لانه لايعدو ان يكون من الاسماء المشتقة من مادة القول :

قال يقول ، قولا ، قيلا وقولة ومقالا ومقالة ، ففي مختار الصحاح وجدت المقالة لغة قد جاءت من {(قال) يقول (قولا) و(قولة) و(مقالا) و (مقالة) ويقال كثر (القيل) و(القال)

وفي الحديث فهي من قيل وهما اسمان وكذا (القالة) يقال كثرت قالة الناس واصل قلت قولت بالفتح ولايجوز ان يكون بالضم لانه متعد .[1]

وبحثت عن القالة في معناها اللغوي وكذلك الاصطلاحي في معجم اخر فوجدت المقالة قد جاءت من ((قال - قولا ومقالا ومقالة : تكلم فهو قائل والقالة : اسم للقول الفاشي في الناس خيرا كان اوشرا و(المقالة) : القول وهي بحث قصير في العلم والادب او السياسة او الاجتماع ينشر في صحيفة او مجلة))[2] اذن المقالة لايعدو معناها اللفظي انها شيء ((يقال)) فنقول الشخص ما احسن قولك وقيلك ومقالك ومقالتك ... الخ ولكن العبرة في مثل هذه الحال لمعرفة تعريفا للمقالة ليست بالمعنى اللفظي للكلمة بل بالمعنى الاصطلاحي اسوة بالاصطلاحات الاخرى كالنحو والصرف فلا بد لنا اذن ان نبحث عن المعنى الاصطلاحي للمقالة وانه قد وجدت ((ان لفظ المقالة كان يستخدم بمعنى بحث في مسالة او مذهب من المذاهب الدينية او يقسم الكتاب الى ((مقالات)) كل واحدة منها تعالج بحثا دينيا اوفلسفيا اولميا))[3] وقد عرف ادموند جونس المقالة بقوله ((المقالة كفن من فنون الادب هي قطعة انشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا وتتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة ولاتعنى الابالناحية التي تمس الكاتب عن قرب))[4] وعند بحثي عن معرفة المعنى الاصطلاحي للمقالة وجدت ان محمد يوسف نجم في كتابه فن المقالة قد ذكر تعريفا للمقالة بالمعنى الاصطلاحي قائلا ((ومن التعريفات المختلفة نخرج بتعريف يكاد يشملها جميعا وهو ان المقالة الادبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع تكتب بطريقة فنية سريعة خالية من الكلفة والرهق بشرطها الاول ان تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب))[5] وهذا التعريف ينطبق على المقالة بمعناها الفني .

ب- نشأة المقالة:

عندما نريد البحث عن نشأة المقالة يجب علينا ان نسلط الاضواء على الاداب الغربية والاداب الشرقية والبحث عن اوليات المقالة في هذه الاداب .

شان بذور المقالة في الاداب القديمة ظهرت قبل القرن السادس عشر بكل انواعها المختلفة وهذا الامر ليس فيه منظمة للاستغراب فالمقالة في حقيقتها شأن سائر الفنون الادبية الاخرى تقوم على ملاحظة الحياة وتدبر ظواهرها وتامل معانيها وهذه ظاهرة نفسية رافقت الانسان منذ ظهوره على وجه الارض وعبر عنها منذ فجر التاريخ في

تهاويل السحر ورسوم الكهوف ووجدت في احاديثه ومسامراته قبل عهد التدوين واصبح من عادة الانسان المتامل فيما بعد ان يدون نتيجة تاملاته على صورة ساذجة تتسم بالبساطة والعفوية بدون خلق قالب محدد وهذا مانجده في امثال الامم وجوامع كلمها وللعرب حظ عظيم منها مايرجع الى عهود موغلة في القدم وعليها يعتمد الباحثون في دراسة تطورهم العقلي والمرتبة التي بلغوها في تمرسهم بالحياة واختبارهم لها وتاملهم لمعانيها ثم ان لهم فائدة اخرى في نظر الباحثين هي ان المقالة تصدر عن عامة ابناء الشعب بينما الشعر عن طبقة ترتفع بعقليتها عن مستوى العوام.١

المبحث الثاني

تاثر الادباء العرب بالادب الغربي وبالاخص كتاب المقالة ١ قبل ان انطرق عن فن المقالة الحديثة في ادبنا العربي والتي ظهرت فيه كفن مستقل في القرن التاسع عشر رايت ان البحث عن الموقف او الاثر لدى كتاب المقالة تجاه الاداب الغربية فيه الاهمية الكثيرة في معرفة تطور المقالة الادبية في الادب العربي .

ان الشرق والغرب تباريا في نهضة الاداب العربية في القرن التاسع عشر بعد خمولها وخاصة في مجال المقالة.

فاستخرج الغرب من خزائن كنوزه المدفونة فسخرت لدى نشرها الباب ابناء الشرق فتسارعوا الى احراز جواهرها والاستسقاء من مناهلها فاتسعت بها دائرة مداركهم وشحذت اذهانهم وتحسن ذوقهم ولم يانفوا ان يستعيروا من اهل الغرب ماوجدوه موافقا لرقي ادابهم فمهدوا للاتين بعدهم السبيل لتبليغ الادب الى صلح كماله ولن يكمل للمواطن العربي جديد كيانه السلبي الااذا اضاف الى ادبه صفات وتخلى عن صفات وليس الجانب السلبي هنا باقل قيمة من الجانب الايجابي بل قد يكون التاثر عن الصفات المعوضة ابلغ اثرا من اضافة الصفات المرغوب في اضافتها وفي هذه الفترة من الكتاب العرب من يجزع من الثقافة الاوربية الحديثة اشد الجزع ويعدها ثقافة دخيلة تستهدف التسلط والسيطرة ويلوذ منها بركن من التراث العربي الصرف حتى يكتب الكاتب من هذه الجماعة وكان عشرة قرون او اثنى عشر قرنا لم تذهب من عمر الزمان ، ومنهم من يفرح بالثقافة الاوربية الجديدة فرحة الاطفال باللعب والهدايا يقلبونها ولايحللونها ويلمسونها من السطح ولايتعمقونها ، وظهر منهم من يقبل الغرب كله والتراث كله ويحسب ان الجمع بينهما امر ممكن كما صنع العقاد ومنهم من يقبل الغرب كله وبعض

التراث دون بعض كما صنع طه حسين ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض كما يصنع محمد عبده ومنهم من يجري تعديلا في التراث وفي الغرب معا كما صنع احمد امين وتوفيق الحكيم ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معا فلا هو قد تعلم شيء من التراث العربي ليعرفه ولاهو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشية ان يقال عنه انهم من توابع المستعمرين امثال هؤلاء سطحيون ولكن من هنا ايضا سر الابداع الذي يحاولونه بدرجات يسيرة.

وعندما ارتقى الادب العربي بجميع الفنون وخاصة من المقالة الحديثة واختلاف طريقة كتابها في الاخذ من الادب الغربي والادب العربي اصبحت المقالة الادبية لها مراحل مختلفة وظهرت بواكير المقالة العربية الحديثة في عدة بلدان عربية .

المقالة الادبية في الادب العربي خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين :

ظهرت المقالة في ادبنا الحديث في القرن التاسع عشر نتيجة لاتصالنا بالغرب واطلاعنا على ادابه حيث تشكل المقالة جنسا ادبيا مهما يقف الى جانب الاجناس الادبية الاخرى ونتيجة لانتشار الصحف والمجلات في الوطن العربي ١.

وكانت اول البلدان سبقا في مجال المقالة الادبية الحديثة هي مصر ومن بعدها لبنان والعراق وهذا التفاوت بالاسبقية يعود الى سبب التاثر والتطلع الى الادب الغربي كما وضحته سابقا في مسالة التاثير بالادب الغربي من قبل الكتاب العرب .

وسوف انطرق لمراحل تطور المقالة الادبية في هذه الاقطار (مصر ، العراق) مبتدأ من مصر :

أ- **مصر :** لقد مرت مصر في اربعة اطوار تطورت بها المقالة العربية الحديثة وهذه الاطوار هي كالاتي :٢

اولا : الطور الاول : يشمل مقالات الصحف الاولى وهي الصحف الرسمية التي اصدرتها الدولة واعانت على اصدارها حتى قيام الثورة العربية واشهر من كتب المقالة في هذا الطور رفاعة رافع الطهطاوي وعبد الله ابو العود وسليم عنجوزي وقد نشروا مقالاتهم في (الوقائع المصرية) و(وادي النيل) و (روضة الاخبار) و (مراة الشرق) .

وكانت المقالة في هذا الطور تمثل المحاولات الاولى في هذا الجنس الادبي بدائية فكان اسلوبها اقرب الى اسلوب النثر في عصر تدهور الثقافة والادب العربي من حيث الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية والزخارف اما موضوعها الرئيسي فيتمثل في الشؤون السياسية والاجتماعية والتعليمية .

ثانيا : الطور الثاني : الذي شهد صحفا جديدة غير مرتبطة بالدولة اسس معضمها المهاجرون السوريون مثل (الاهرام) (واصدار السيد جمال الدين الافغاني مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة العروة الوثقى)٣ وارتبطت مقالات هذا الطور بتاريخ الكفاح الوطني في مصر وكذلك الدعوة الى تطبيق مبادىء الاسلام وكتاب المقالة في هذه الفترة امثال اديب اسحاق وعبد الله نديم ومحمد عبده وابراهيم المويلحي وعبد الرحمن الكواكبي وغيره وامتازت مقالاتهم بالتحرر الى حد كبير من قيود السجع في الاسلوب واما موضوعاتهم غلب عليها الموضوعات الوطنية والاجتماعية المتاثرة بروح التحرر والاصلاح .

ثالثا : الطور الثالث : وهو الطور الذي شهد مقالات صحف المدرسة الصحيفة الحديثة التي اسستها الاحزاب السياسية التي شهدتها مصر في عصر الاحتلال مثل حزب الاصلاح الذي اسسه الشيخ علي يوسف واصدار جريدة (المويد) والحزب الوطني الذي انشاه مصطفى كامل واصدر جريدة (اللواء) وحزب الامة الذي كونه لطفي السيد واصدر جريدة (الجريدة) وفي هذه الفترة كانت اتجاهات مقالاتهم منها ماهو سياسي بحت ومنها ماهو علمي وتربوي اما الاسلوب فقد تخلص كليا من قيود السجع والصنعة فاصبح حرا وبسيطا يعنى اساسا بالافكار والمعاني .

رابعا : الطور الربع : ان هذا الطور بدأ مع قيام الحرب العالمية الاولى وماتلاها من احداث اثرت تاثير كثيرا في الحياة المصرية وفي الشخصية المصرية واهمها ثورة ١٩١٩ واوائل اهم الصحف التي ظهرت في هذا الطور واثرت في تطور المقالة جريدة (السفور) و (السياسية) و (كواكب الشرق) وغيرها واشهر من حرر فيها طه حسين ومحمد حسين هيكل وابراهيم المازني وعباس محمود العقاد وامتازت المقالة في هذا الطور بالتركيز والدقة العلمية والميل الى بث واشاعة الثقافة العامة واسلوبها هو الاسلوب الحديث الذي اشتهر به هؤلاء الكتاب العمالقة الذين هم اقطاب الادب والفكر العربي الحديث وذلك بسبب تاثرهم بالثقافة الغربية

وما فيها من اتجاهات فلسفية ونقدية واشدهم تاثيرا عباس محمود العقاد لم يكتفِ ولم ينقل عن الادب الغربي فيها قط بل هو ايضا صوب نظرة على الادب الايراني وكان في نقله عن الاداب الغربية والادب الايراني كان ينقد ويحلل ثم يستنبط كايرع ما يكون النقد والتحليل والاستنباط .

ب- العراق : فقد مرت المقالة في تطورها بثلاث مراحل ١ :

اولا : مرحلة العهد العثماني : شهدت هذه المرحلة بعض الرسائل الساذجة والبعيدة عن الشؤون والمشكلات الحياتية المهمة واسلوبها هو الاسلوب المسجوع والحافل بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ولعل هذا يعود الى عزلة العراق عن العالم وتخلفه الثقافي وتاخر ظهور الصحافة فيه لكن الحال تغير باعقاب اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ حيث تطلق الحريات فترة من الزمن وتنشأ صحف ومجلات متنوعة مما يؤدي الى تطور المقالة في البساطة في الاسلوب ونبذ الاسلوب المتكلف والتعبير عن موضوعات سياسية واجتماعية تتعلق باغلبية الناس مثل الدعوة الى الحرية ووصف مساوىء الاستبداد والدعوة الى مكارم الاخلاق واستقلال العرب .

ثانيا : مرحلة الاحتلال البريطاني : وقد كثرت في هذه الفترة المقالة الادبية نتيجة لتشجيع الانكليز الكتاب للعمل في الصحف التي انشؤها وامتازت المقالة في هذه المرحلة بالسهولة بالالفاظ والوضوح في الافكار ومن حيث الموضوع غلب عليها وصف العلاقات بين العرب والاتراك والعلاقات بين العرب والانكليز والاشادة بالانكليز بوصفهم منقذين للعراق من الظلم العثماني

ج - مختارات للمقالة الحديثة :

١- ابتدا بمقالة (الاشراط الالهي وفلسفة الاسلام) لمصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) (... كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار ، يولد النبي فيوجد في الانسانية ينبوع النور المسمى الدين ، وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق اعمالها و وليس الدين الا يقظة النفس بتحقيق فضائلها ، والشمس

خلقها الله حاملة طابعه الالهي في عملها للمادة تحول به وتغير ، والنبي يرسله الله حاملا مثل هذا الطابع في عمله للروح تترقى فيه وتسمو ، ورعشاة الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون بكلام من نور ، واشعة الوحي في النبي هي قصة البداية لانسان في نور من الكلام)[٢] .

هذه المقالة تعكس شخصية كاتبها حيث نشأته العربية الاسلامية وتطلعة على كل ما يتعلق بعلوم العربية والاسلام .

٢- مقالة (المطالبة بالاستقلال) لمحمد حسين ال كاشف الغطاء وهو يخاطب السفير البريطاني ، وكان محمد حسين ال كاشف الغطاء من اعلام المقالة في العراق وصاحب الروح الوطنية (... نعم اعطيتمونا الاستقلال ولكن الاستقلال الكاذب المزيف . ماتغيرت ولاتبدلت وانما تغيرت الالوان والاوضاع والصور والاشكال ، والروح تلك الروح وبما يحبط عليها من الوحي والاشارة . يعمل الجميع لحسابكم لان الجميع من صنايعكم . وقل من يخفى عليه هذه الحال او يحسب ان هنالك استقلالا)[٣] .

٣- وكان عجلة الزمن قد توقفت والحال كما هو عليه في الزمن الذي نعيشه من احتلال وما جرنا اليه من مشاكل لم نكن نعرفها حتى في زمن الطاغية ، فرحم الله محمد حسين ال كاشف الغطاء على هذه المقالة التي ذكرتها ، ومقالة بخصوص هذا الشان - شأن الاحتلال - لفهميب عبد الحميد المدرس هي :

(... تالله لقد سئمنا المعاهدات وذيولها ، والمقالات وعقودها ، والمواعيد الخلابة والاساليب الانتدابية التي تجعلك تفكر وتنطق وتعمل وتدين بدين غيرك وبشعور غيرك وبلسان غيرك ولمصلحة غيرك وتحمل نفسا غير نفسك ، فتقاوم وتكافح ، وتعادي وتطعن ، وتعلن نفسك وانت لاتدري ، الاستعمار يريك الشيء ويرغمك على قبوله بالحديد والنار والانتداب يريك الشيء بخلافه ويجعلك من تلقاء نفسك تدافع عنه دفاع المستميت معتقدا بانه هو الحق) (فالاستعمار الصريح خير من الاستعمار المخلوع عليه خلعة الانتداب او الاستقلال والعاقبة وان كانت واحدة الا انك في دولة الاستعمار تموت وانت عارف بدائك ودوائك وفي دولة الانتداب تموت ميتة جاهلية بائسا وشقيا ولكنك معتقد بالسعادة والرقاء والاول يخلف غاندي والثاني يخلف ..... ولله في خلقه شؤون .)[٤]

ومقالات المدرس تمتاز بالثراء الفكري نتيجة لمحصوله الثقافي الكبير الذي توافر له بفضل اتقانه عدد من اللغات ولانخراطه في النشاط السياسي والاجتماعي ورحلاته الى عدد من الاقطار العربية والاوربية وجمعه بين الثقافة القديمة والحديثة كما تمتاز بالصدق لانه لم يكتب الافيما يؤمن به وجاءت في الاسلوب واضح وسهل لاتعقد فيه ولاتكلف وكذلك اناقة الالفاظ وتناسقها وانسجام تركيبها واختيارها اختيارا موفقا ولهذه الاساليب التي ذكرها من مزايا شخصيته وتاثره واسلوبه فقد ذكرت مقالته في المختارات لانها تجسد خيرالمثال على اسلوب المقالة الادبية الحديثة ١ وكذلك مصطفى الرافعي محمد حسين ال كاشف الغطاء ويوجد في ادبنا العربي المقالة الكثير من الشواهد بخصوص المقالة الادبية مثل مقالات الشيخ محمد عبده والعقاد الذي خير ما تمثل مقالاته المقالة الحديثة وتاثره بالاداب الاوربية والفارسية واجادته للغة الانكليزية وكذلك كتابا كثيرون كتبوا المقالة الحديثة ولكنني اكتفيت بهذه الشواهد المذكورة .

المبحث الثالث

١- المقالة : لم يكن المقال معروفا عند العرب بالشكل الذي نراه اليوم وما كان لديهم ماهو قريب من فن المقال وهو في فن الرسائل او هو الى فن الرسائل اقرب منه الى فن المقال والذي ظهر على يدي عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة واضرابهم ، ففي هذا الفن تناولوا جوانب من المجتمع على عهدهم وخصوا كل جانب منها برسالة تعالجه في بسطة وسعة . وقد تكون الرسالة عدة صفحات كما قد تطول فتقترب من ان تكون كتابا صغيرا . وعلى الرغم من هذا فان المقال تختلف الى حد كبير عن الرسالة فالمقالة تتناول موضوعا اكثر تحديدا وتعرضه بصورة اشد تركيزا وهذا الموضوع يتصل بقضية حية ويتجه فيه الحديث الى الجماعة ويخضع في اخر الامر في اسلوبه لمقتضيات الصحافة التي نشاء معها هذا الفن ، فقد ارتبطت نشاة المقالة في الادب الحديث بالصحافة ، فظهر في ظلها ورافقها على طريق التطور وتاثر في ذلك بالمقال الصحفي الغربي كما تاثر في عرضه بالاتجاه العربي حيث خاض المقال مع الصحافة غمار المجتمع على كل اختلاف مجالاته ومشكلاته بصورة ماضية وما يدور فيه ويصور ما يرنو اليه سواء كان ذلك في الدين ام في السياسة ام في الاجتماع ام في الادب

ام في العلم ام في غير ذلك . فكان بذلك عاملا ايجابيا فعالا في حركات التحرير والاصلاح والنهضة . وكما تنوعت موضوعات المقال وتعددت واتسعت القاعدة التي يوجه اليها الشيء تدريجيا او شيئا فشيئا حتى اصبحت تشمل الجماهير العربية في مصر وغيرها من اقطار الوطن العربي ولذلك اختلف المقال في طريقته وفي قالبه واسلوب عرضه وجمهوره عن الرسالة القديمة المسهبة التي كانت تكتب للخاصة ، وقد جاءت المقالة في الادب المصري خاصة استجابة لضرورات سياسية واجتماعية . ويرى (د . علي جواد الطاهر) ان المقالة هنا ليست انشاء مطلقا قائما على العاطفة او الخيال وليست بحثا مثقلا بالاسانيد والمراجع انما هي عرض يسهل المادة ويجعلها اقرب الى القارىء واخف عليه بما يحاوله المؤلف عن ترقيق في الاسلوب واثارة للذهن وقصد الى الطرافة ، فتؤدي بذلك غرضا قد يعجز عنه البحث في ساعات لاتجد المرء في نفسه استجابة لغير اليسير او المسير وهو يعرض نموذجا للمقال بعنوان اريد ان اكون قصاصا . وهذا النموذج جاء حسب مقتضى الحال " ارغب في ان اكون قصاصا " فما هي القواعد التي استطيع بها النجاح ؟ ارجوك ان تلخصها لي واعدك باني التزمها حرفا . حرفا ،، فليس من الصعب ان اطيع ما تمليه علي مما يجب في حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الختام اعدك باني اكتب القصة كما تريد .. . كما تنقل لي ما قرأته في كتب النقد الادبي ... الخ (٢)

ولقد اتجه اصحاب احياء التراث القديم الى البحث عن الجذور لهذا الفن الجديد في ادبنا العربي بعد ان تعرفوا عليه في الاداب الغربية فكانت المقالة انسب هذه الاشكال العربية مشابهة للعمل الروائي او للرواية او القصة اتخذت هذه المحاولات التجريبية المقامة واسلوب بناءها الفني اطارا شكليا لتقديم هذا الفن الجديد والتعبير من خلاله عن القضايا المعاصرة وكانت ابرز واحدث تلك القضايا هو ذلك الصراع بين الشرق والغرب وما ستتطلبه واقتحام الحضارة الغربية بمستواها المادي للوجدان العروبي من دعاوى الاصلاح والبناء وكانت لاعمال هذه المرحلة من نتاج المثقفين من دعاة الاصلاح الاجتماعي وظلت للرواية رويدا لدى القريب السلفي والغريب الوافد والصراع بينهما كما ظهر ذلك في الصراع بين الشكل الفني وبين المحافظة على لغة النثر الفني وبين الانطلاق الى لغة انتقالية تنقل الافكار مع الاحداث .تميزت هذه المرحلة بعدم الحرص على انماط محددة ترددت بين شكل المقامة وشكل المقالة حيث اخذت من المقامة

زخرفتها وبديعها ومن المقالة اسلوبها وطريقتها في سرد الاحداث وكانت هذه الاعمال تتخذ هذه الاشكال الفنية وسيلة تعليمية لغرض مناقشة مشاكل العصر ولقد ادت الثقافة الفنية التي تمتع بها كبار كتاب تلك الفترة الى تعدد وسائل التعبير وتمايز اساليب الاداء والتعبير الفني بين اتجاهين رئيسين هما الاتجاه الاسلوبي والاتجاه الفكري او الموضوعي .

وفي الوقت الذي كان محمد عبده رائد المقال في مصر كان هنالك ايضا عبد الرحمن الكواكبي الذي نستطيع ان نقول انه محمد عبده الشامي، ولعبد الرحمن الكواكبي :

المجد

((هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لايترفع عنه نبي او زاهد ولاينحط عنه دني اوخامل ، للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله ، وتعادل لذة العلم عند الحكماء ، وتربو على لذة امتلاك على تمرها عند الامراء وتزيد على لذة المفاجأة بلذة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة وقد طالما اشكل على الباحثين أي الحريصين اقوى حرص الحياة ام حرص المجد، والحقيقة التي عول عليها المتاخرون هي ان المجد افضل من الحياة عند الاحرار وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء ، المجد لاينال الابنبوغ من البذل في سبيل الجماعة وفي تعبير الشرقيين في سبيل الله او الدين وفي تعبير الغربيين في سبيل الانسانية او الوطنية والمولى جل وتعالى المستحق التعظيم لذاته ما طلب عباده بتبجيله الاقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم ،، وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف المجد اوبذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة او بذل النفس بالتعرض للمشاق او الاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة وهو اعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق وهو المجد الذي تتوقد اليه النفوس الكبيرة وتحن له اعماق النبلاء)) .

لعل اول ما يسترعي نظرنا في هذا النص (العنوان) الذي اختاره الكاتب فهو كلمة المجد . ولعله اكتفى بها حيث تشغل عليه حياته وتملك زمام قلبه وهو يريد ان يحقق مفهومها في نفسه وفي نفوس الاخرين . واذا استعرضنا المقال بالدراسة والتحليل .

نجد ان الكاتب في عرضه للفكرة الاولى يحدد مفهوم المجد بانه ظفر المرء بمنزلة مرموقة في نفوس الناس تقوم على اساسين من الحب والتقدير معا ولعله يرى في ذلك .

قد يحبون شخصا ولايقدرونه وقد يقدرون شخصا ولايحبونه وفي كلتا الحالتين لايملك عليهم عقولهم وقلوبهم ولايحتل من نفوسهم المكان الذي ينبغي ان يحتله الاماجد وينتقل من تحديد مفهوم المجد الى الحديث عن تعلق الناس به فيبين انهم جميعا يلتقون على حبه ويمر عابرا بمرارة الاخلاق الذي يحسه عند من يقطعون عن طلبه في شيء من الاثارة عن اللذة الروحية التي يستشعرها من يظفرون بها وحين يحس انه قد بلغ ما يريد من التاثير في النفوس ومن اقناعها بمكانة المجد ولذاته يخلص الى الموازنة بينه وبين الحياة فيرى انه يفضلها عند الاحرار اما الاسراء فهم الذين يعدونها افضل منها .

ولغة الكاتب تعتمد على الالفاظ واضحة المعنى والقريبة الدلالة وهو يحاول ان يستخدم اللفظ والتراكيب استخدامها دقيقا كما في قوله عن اللذة تقارب ساعات الكرب تزيد ولكن حماسته لفكرته تغلبه وتطل من خلال الفاظه وتراكيبه وهو متحرر الى حد كبير في بناء العبارة فقد تطول الجملة وقد تقصر ولاتتقيد بالصنعة الافي النادر القليل كما في السجعات التي تتوالى في قوله (وتعادل لذة العلم والفقراء ويظهر ايضا في مقالاته انه نص عن المقال السياسي لانه يرسم سياسة خاصة للحكم والاصلاح وهو يلقي الاضواء على شخصيته من الناحيتين الاجتماعية والفنية ، وليس من شك في ان الصحافة التي عمل في حقلها كان لها اثر في تحرير اسلوبه في كثير من الملامح التي اتسمت بها كتاباته . ولقد اثمرت تلك الجهود التي بذلها الكتاب الاوائل مثال عبد الرحمن الكواكبي واليازجي ومحمد عبده وغيرهم في تبلور الاتجاه الذي ارتادوه في طريق المقالة الفنية حيث بدأت هذه الطريقة النثرية الاولى في الادب الحديث تأخذ وضعها الطبيعي بين فنون الادب المختلفة (١)

المنفلوطي

وقد كان المنفلوطي احد الاعلام البارزين في تلك الطريقة التي يمكن ان تسمى الطريقة المنفلوطية ولمقالة سمة خاصة متميزة في المقال الادبي وقد ولد بمنفلوط سنة ١٨٧٦ وتدرج في تعليمه من الكتاب الى الازهر وحضر دروس الشيخ محمد عبده ثم ترك الازهر بعد عشر سنوات وذلك للتغلب الميول الادبية عليه فاتجه الى كتب الادب ودواوين الشعراء وكبار المفكرين وترجماتهم ولقد اتجه الى الكتابة في الصحف فكان من كتاب صحيفة المؤيد البارزين ثم عينه سعد زغلول محررا في وزارة المعارف ثم انتقل سعد

الى وزارة العدل ثم فصل بعد خروج سعد من الوزارة وظل يكتب في الصحف الى ان عينه سعد من جديد في وظيفة تحريرية في مجلس الشيوخ بعد ان عاد البرلمان وبقي هذا العمل حتى توفي سنة ١٩٢٤. (٢) (٣)

ويتسم المنفلوطي ببعده عن التكلف والتقليد والقصد الى الصدق والاهتمام بحسن الصياغة وجمال الايقاع ورعاية الجانب العاطفي ثم الميل الى السهولة والترسل وترك التعقيد والمحسنات المتكلفة في عدا بعض الومضات من السجع المطبوع الذي يأتي بين الحين والحين . للاسهام في موسيقى الصياغة ولقد كان المثل الاعلى لتلك الطريقة ذلك النثر المرسل الذي خلقته عصور الازدهار العربية ولم تكن كتابة المنفلوطي محاكاة لتلك النماذج التي يمثلها نثر العصور القديمة ولكنها بالرغم من ذلك وبرغم محافظتها ففيها كثير من الابتكار والابداع مع الاصالة وعليها طابع الكاتب وفيها ملامح شخصية ، وهذه الطريقة قد وضعها ورسم معالمها المنفلوطي . تعتبر طريقة محافظة بيانية اشبه بطريقة شوقي في الشعر وكان هو قمة من كتبوا بها (٤) جمع مانشره في صحيفة المؤيد في ثلاث مجلدات باسم النظرات مقالات في الادب والاخلاق والاجتماع رعاية جمال الاسلوب دون الاعتماد على المحسنات البديعية والزخارف اللفظية وفيها الخيار الادبي . وقد استطاعت ان تاخذ تلك الطريقة مسارها في المقال وغلبت نزعتها على الكتابة خلال تلك الفترة وقد طبعت ست عشرة مرة لاسلوبها الذي يجلب القراء وخاصة المحبين للادب وهواة صناعة القلم . فبقيت حية مقروءة على حين اختفت معظم الكتابات التي كانت تهاجم صاحبها وذلك لانها كانت اكثر تمثيلا لروح العصر . ومع هذا لانستطيع ان نقول ان طريقة المنفلوطي هي المثل الاعلى لكتابة المقالة فقد اخذ عليها النقاد اهتمامها الشديد بالاسلوب على حساب الجانب الفكري أي اهتمامه بالناحية الشكلية في صياغة الجمل والعبارات والالفاظ قد اهدر جانبا كبيرا من الفكر كما ان مبالغته في اصطناع الاسى واثارة العاطفة ثم عدم الدقة في الاستعمال اللغوي احيانا والميل الى حشد الالفاظ المترادفة والعبارات المكلمة والكلمات المؤكدة دون حاجة الى ذلك كل هذا اضر بالفكرة وبرغم ذلك فقد كانت مقالاته اول النماذج الفنية التي تقرأ وتستعاد تعجب القراء فهي بحق قطع من الادب لا مجرد كتابات في الادب او الاخلاق او الاجتماعيات ككتابات الكثيرة من غيره . وهذا نص للمنفلوطي .

نص للمنفلوطي

(ايها المحزون ان كنت تعلم انك قد اخذ على الدهر عهدا (١) ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك واطوارك وان لايعطيك ولايمنعك الاكما تحب وتشتهي فجديربك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب واستعصى عليك مطلب وان كنت تعلم اخلاق الايام في اخذها وردها وعطائها ومنعها واهنا لاتلم عن منحة تمنحها حتى تكسر عليها ردها فتستردها وان هذه سنتها وتلك خلتها في جميع ابناء ادم . سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطاء بنعله هام الجزاء ومن ينام على بساط الغبراء فاخفض من حزنك وكفكف من دمعك فما انت اول غرض اصابه سهم الزمان وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والاحزان انت حزين لان نجما زاهرا من الامل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نورا وقلبك سرورا وماهي الا كرة الطرف ان افتقدته فما وجدته ولو انك اجملت في املك لما غاليت في حزنك ولو انك امعنت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقا خاطفا ماتظنه نجما زاهرا وهنا لايبهرك طلوعه فلايفجعك افوله ، اسعد الناس في هذه الحياة من اذا وافته النعمة تنكر لها ونظر اليها نظر المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت في يده فذلك والافقد اعد نفراقها عدته لولا السرور في ساعة الميلاد ماكان البكاء في ساعة الموت ولولا الوثوق بدوام الغنى ماكان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاشي ماكانت فرحة الفراق غير ان طريقة المنفلوطي او الاتجاه المحافظ البياني في النثر كما يسميه بعض النقاد (٢) لم تكن الطريقة الوحيدة لكتابة المقال في تلك الفترة ، فالحق ان تلك الطريقة كانت الطريقة الوسطى التي تاتي بين اتجاهين اخرين من الوضوح والقمة حينذاك وحيث تعتبر ان طريقتين مميزتين اخريين اما احد هذين الاتجاهين فقد كان اكثر تشبثا بالتراث . واقوى تعلقا ببعض مخلفاته حيث اصطنع السجع على اسلوب المقامات وكانت كتابات اصحاب هذا الاتجاه مقالات في موضوعات اشبه بموضوعات طريقة المنفلوطي فبعضها ادبي وبعضها اخلاقي وبعضها اجتماعي ومع ذلك لم يتخذ هذا الاتجاه لتلك الموضوعات هذا الاسلوب المرسل الحي وانما اتخذ اسلوبا فيه كثرة من طابع الكتابة التقليدية التي عرفت في الفترة السابقة والتي كانت تتناول في اكثر الاحايين موضوعات ليس لها صفة العموم واغلب الظن ان امتداد تاثير هؤلاء السجاعين الشكليين من جانب والتشبث الشديد فيه بعض خصائص الشعر من جانب اخر ثم محاولة بعض الشعراء كتابة نثر فيه بعض

خصاص الشعر من جانب ثالث قد اوجب هذا الاتجاه في كتابة المقاله المسجوعه بالرغم من انطلاق لغة المقالة وتحررها وعليها الى طبيعة الفن النثري الحديث ومن ابرز مايمثل الاتجاه القديم في الكتابة كتاب اسواق الذهب لاحمد شوقي وصهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري (٣) ، وهذا نص للشاعر احمد شوقي في اسواق الذهب (٤) .

المال

يامال الدنيا انت والناس حيث كنت سحرت القرون وسخرتة من قارون وسعرت النار ياميرون تعود الحقد ان يحالفك وكتب على الشر ان يخالطك ويحالفك ، الفتنة ان حركتها اتقدت وان تركتها رقدت وهي الحرب تبعثها ذات لهب منك الرياح ومنك الحطب تزري بالكرام وتغري بالحرام وتضري بالاجرام فقدانك الصبر والدر ونكد الدنيا على الحر حالك وحال الناس عتب تملكهم ويقولون اصبحنا وملكنا وترثهم عند اللحد ويقولون ورثنا وتركنا من عاش قومه بما ملك ومن هلك وسائلوا كم ترك المحروم من اوثقك والضائع من اطلقك وهما فقيران من جمعك ومن فرقك كثيرات همومك غم ومع التوسط الخوف والطمع والحرص والجمع حذر النقاد ورغبة في الازدياد . الملك سوقة اذا نزل احد والسوقة ملك اذا علا عليك ارخصت الجمال ورفضت الكمال وخطيت لهجم الرجال ، ربات الحجال صويحباتك هن المفضلات وغيرهن المتروكات المعطلات العريان من ليس له منك سترة والمستور من ليس له منك قدره فسبحان تلك قدرة الله قهر لك الخلق وقهرك برجال الخلق .

فهذان اتجاهان احدهما متمسك بالقديم والاخر للمنفلوطي اسلوب خيالي خلاب واما الاتجاه الثالث فهو فكري غربي يمثله المولون وجههم نظر الحضارة الغربية فلم يشغلوا انفسهم بتجويد الاسلوب تجويدا بيانيا كما فعل المنفلوطي كما لم يرهقوا اقلامهم بتحميلها اعباء البديع كما فعل شوقي والبكري مهتمين بالجانب الفكري للمقالة . (١) اصبحت المقالة اهم الوسائل التي يخاطب بها الادباء القراء ولها الريادة في النشاط الادبي متخذة طريقها من خلال الصراع الحزبي بين الصحف الناطقة بلسان هذه الاحزاب مستغلة ذلك التنافس الشديد بين المجلات الناطقة بلسان الثقافة والادب التي كان لها الاثر الكبير في تنشيط كتابة المقالة التي توفرت لها كل عوامل الازدهار في ذلك العصر وهو العصر الذهبي لها . تعددت الصحف وبرز فيها اللامعون من الكتاب ومن مظاهر هذا الازدهار

تعددت الوانها كالمقال الادبي يدرس شخصيةً او ظاهرة او اتجاها اواثرا في الادب العربي القديم او الحديث او الادب الاوربي الغابر او المعاصر والمقالة النقدية التي تحدد قيمة اوتشرح مبدأ من قيم النقد او مبادئه اوتطبق هذا او ذاك على بعض الدواوين او الكتب او النصوص الادبية على وجه العموم والمقالة الفلسفية التي تعرف ببعض الفلاسفة او تشرح بعض نظرياتهم وافكارهم ولكن بلغة الاداب واسلوب الادباء لابلغة الفلاسفة واسلوب الحكماء والمقالة التاريخية التي تعرض لعصر مضى او ثورة سلفت اوبطل غابر اوشخصية ادبرت ثم المقالة الاجتماعية التي تندرج تحتها الكتابة في كل ما يتصل بالمجتمع من امور سياسية واقتصادية وتعليمية وخلقية وما الى ذلك مما يتناول الادباء لاكمتخصصين في السياسة والاقتصاد والتعليم والاخلاق . ثم المقالة التعبيرية التي كان موضوعها انطباع الكاتب او شعوره حيال حدث معين او موقف خاص اومشهد ما .

وفي هذا اللون من المقالات يكون الكاتب اشبه بالشاعر ولاينقصه غالبا الاجانب الموسيقى المعهود بالشعر حتى يكون عمله قصيدة لامقالة الكتب في الهامش جمعت من مقالات نشرت اولا في الصحف نشر طه حسين في السياسة الاسبوعية وكانت حول الشعر الجاهلي والاسلامي . (٣)

الثاني عن العباسيين ، الثالث عن الادب الحديث القديم والجديد . يناقش الرافعي ثم تناول بعض الدواوين في اوقات الفراغ (٤) لهيكل ثلاث مراتب اومباحث مختلفة في النقد ترجمات منوعة انتون فرانس قاسم امين عن مصر وتاريخها تلك المقالات الخاصة للدعوة الى الادب القومي . العقاد نشر في البلاغ (٥) (٦) منوع غاية التنويع شخصيات عربية واوربية مثل المعري والمتنبي وانتون فرانس ومباحث فنية وجمالية مثل عبقرية الجمال . والفنون الجميلة ومعرض الصور ودراسات ادبية ونقدية مثل الادب كما يفهمه الجيل القديم والجديد .

المبحث الرابع

فنون مستحدثة

رايئا كيف ان ادبنا يتطور تطورا واسعا بفضل الاضواء الغربية التي وفدت عليه وبفضل تحوله من الطبقة الارستقراطية طبقة الملوك والامراء ومن يلوذبهم الى الطبقة الديمقراطية طبقة الشعب على اختلاف د رجاتهم وتحت تاثير هذا التطور عادت الخطابة السياسية الى الازدهار ازدهارا لعل العصور القديمة لم تعرفها من قبل فانها اخذت تستمد من معين الفكر الغربي الذي لاينضب لما وصل اليه من مبادىء في الحريات وفي الحقوق السياسية كما اخذت تستمد من حياتنا وظروفها التعسة ظروف الحكم السيء والاحتلال البغيض ولم يلبث ان ظهر عندنا خطباء سياسيون مفوهون مثل مصطفى كامل وسعد زغلول ثم انشانا الدستور القديم والاحزاب ودعاية كل حزب لنفسه وظهر في كل حزب خطباء محترفون يعدون بالعشرات فكان ذلك سببا في نمو هذا اللون من الخطابة السياسية وازدهارها واخذنا عن الغرب نظام القضاء الحديث كما اخذنا عنه الخطابة القضائية اذ وجد نظام المحاكم والمدعين العاملين واصبحت محاكمنا مثل المحاكم الغربية ميدانا واسعا يجول فيه الخطباء من رجال القانون وتعقدت القضايا فتعقد هذا اللون من الخطابة واشتهر فيه كثير من الخطباء القانونيين وبجانب هذين اللونين نشات الخطابة الاجتماعية التي تلقي في النوادي والمحافل العامة وتتناول جوانب وانسانية مختلفة ففن الخطابة قد اصاب حظا واسعا من الرقي في حياتنا الادبية الحديثة ولكن لانستطيع ان نقول انه فن استحدثناه واوجدناه دون اصول سابقة فلقد كانت خطابة سياسية واجتماعية او حفلية في العصرين الجاهلي والاسلامي .حقا ذبلت الخطابة في العصور التالية ولكننا نرث منها على كل حال تراثا قيما واذا كانت الخطابة باستثناء الخطابة القضائية ليست جديدة كل الجدة فان هناك فنونا نثرية اخرى استحدثناها وانشأناها مستلهمين في انشاءها اعمال الغرب وما اقامه ويقيمه فيها من نماذج مختلفة وهي المقالة والقصة والمسرحية والرواية ونحن نعرف الان ان المقالة قالب قصير قلما تجاوز نهرا اونهرين في الصفحة ولم يكن العرب يعرفون هذاالقالب انما عرفوا قالبا اطول منه ياخذ شكل كتاب صغير وهم يسمونه الرسالة مثل رسالة الجاحظ (التربيع والتدوير) ولم ينشؤوه من تلقاء انفسهم بل اخذوه من اليونان والفرس وادوا فيه بعض الموضوعات الادبية التي

خاطبوا بها الطبقة الممتازة من المثقفين في عصورهم ، اما المقالة فقد اخذناها عن الغربيين وقد انشأتها عندهم ضروريات الحياة العصرية والصحفية فهي لاتخاطب طبقة رفيعة في الامة وانما تخاطب طبقات الامة على اختلافها وهي لذلك لاتتعمق في التفكير حتى تفهمها او ترفهها الطبقات الدنيا وهي ايضا لاتلتمس الزخرف اللفظي حتى تكون قريبة من الشعب وذوقه الذي لايتكلف الزينة والذي يوثر البساطة والجمال الفطري .

ومن اجل ذلك لم يكن ادباؤنا يكثرون من كتابتها في الصحف في اواسط القرن الماضي اوبعبارة ادق في الثلث الاخير منه حتى اضطروا الى ان ينبذوا الفانف البديع واثياب السجع وبهارجه الزائفة التي كانت تثقل اساليب رفاعة رافع الطهطاوي وتعوقها عن الحركة (١) وصرعان ما وجدنا عندنا المقالة السياسية الطليقة من اغلال السجع والبديع واخذت تخاطب الناس بالقريب وتتحدث اليهم في شوونهم الوطنية وجعلت توثر فيهم تاثيرا قويا كان من نتائجه قيام الثورة العرابية في مصر ومن اجل ذلك حبث حوكم زعماء هذه الثورة حوكم معهم كتاب المقالة حينئذ فاختفى عبد الله النديم ونفي محمد عبده وكان قد ابعد جمال الدين الافغاني ولم يصبهم ما اصابهم من ذلك الابسبب ماكتبوا من مقالات سياسية وتغلبي عليها النزعة الخطابية عند النديم اذ كان خطيبا مفهوما من خطباء الثورة العرابية وكانها كانت متنفسا عنده لثورة وحدت عاطفته الوطنية وهو يمسح عليها احيانا بسخرية مرة وكان احيانا يجري مقالاته في جوانب اجتماعية اصلاحية ماسحا عليها بدعابة حلوة وكان يسود مقالات محمد عبده ، ضرب من الانفعال ولكن في وقار ورصانة وقد شفع مقالاته السياسية بمقالات اصلاحية في الدين والمجتمع الاسلامي كتبها بقلم البصير الحاذق محمسا تارة وفاحصا دارسا تارة اخرى .

واخذ هذا اللون من المقالات ينمو مع نمو عقلنا ويرقى مع رقيه وبلون واسع بين مقالات هذا الجيل الاول والجيل الذي تلاه في عصر الاحتلال مثل مصطفى كامل، الشيخ علي يوسف، لطفي السيد ، فقد بث هذا الجيل الثاني في المقالة السياسية حياة وقوة ومما لاشك فيه ان اقوى شيء قاومنا به الاحتلال البريطاني هي مقالات مصطفى كامل في صحيفة اللواء التي شحذت عزائمنا لمناهضة الاحتلال ومصارعته وهو بحق زعيم لحركتنا القومية في عصره غير مدافع اذكان شعلة وطنية متقدة وكان خطيبا مفوها وكتابا سياسيا لايشق له غبار .

اتبع بعض الادباء الاسلوب الاوربي في المقال المتحرر ، واهتموا اعظم الاهتمام بالجانب الفكري فمالوا الى الموضوعية واصطناع المنطق وجنحوا الى الوضوح والدقة والترسل الكامل هذا الى تحميل الكلام شعلة الثقافة اوشحنة منها والفكر الغربي منهم احمد لطفي السيد يقول في احد مقالاته عن الاستقلال .

((استقلال الامة في الحياة الاجتماعية كالخبز في الحياة الفردية لاغنى عنه لانه لاوجود الابه وكل وجود غير الاستقلال مرض يجب التداوي منه وضعف يجب ازالته ، بل عار يجب نفيه واستقلال الامة عما عداها او حريتها السياسية حق لها بالفطرة لاينبغي لها ان تتسامح فيه او ان تني في العمل للحصول عليه ، بل ليس لها حق التنازل عنه لغيرها لابكله ولابجزئه لان الحرية لاتقبل القسمة ولاتقبل التنازل فكل تنازل من الامة عن حريتها كلها او بعضها باطل بطلانا اليها لاتلحقه الصحة باي حال من الاحوال ، فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء سياسة ان قلت انه يجب على الامة ان توجه كل قواها بغير استثناء للحصول على وجودها أي الحصول على الاستقلال)) ونحن الى جانب هذا الص نختار مقالا للاستاذ - د - زكي نجيب محمود وهو من الذين برزوا في الميدان الجامعي وعمل بكلية الاداب في القاهرة وله انتاج ادبي صحفي غزير وهو من الكتاب المعدودين يقول بعنوان تزهر الشجرة ((تزهر الشجرة او تثمر لاتكون لحظة ازهارها او اثمارها كسائر اللحظات في حياتها لانها لحظة اكثر املا وهفا ، فشجرة القطن لاتصبح تعبيرا عن طبيعة تلك الشجرة بكامل معناها الاعند تفتق الزهرة وظهور الثمرة اما مافبل ذلك فهي في طريق الاعداد للهدف فاما حققت طبيعتها ووجودها واما اخفقت كانت الى حطب الحريق اقرب منها الى شجرة القطن، ولقد تصورت الشجرة قبل ازهارها او اثمارها تجمع وتستجمع كل كيانها في فعل واحد هو فعل الولادة للكائن الجديد وربما حذف لاجرائها نوع من التوتر لينفرج بخروج الزهرة او الثمرة من عالم الخفاء الى عالم الشهادة وهكذا ايضا تكون الامة فلكل امة لحظاتها الفريدة التي تتبلور فيها اخلص خصائصها لا لانها خصائص تظهر فجأة من عدم بل لانها كائنة تنتظر اللحظة ، لحظة الازمان فتتجمع بعد تشتت وتتبدى بعد غموض واختفاء وفي لحظة كهذه تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطة واحدة لو امعنا تحليلها ورؤيتها لكشفت لنا من غوامض النفس وخوافيها واعتقد ان الامة العربية تعيش لحظة من هذه اللحظات الكاشفة فاذا سئل منا سائل من نحن ما حقيقتنا واين نكون وارى اول ما ارى اننا امة تحقق وحدتها بفعل

موحد مشترك ويقول ان التجاوز المكاني وحده لايكفي في ايجاد الرابطة الحيوية العضوية التي تجعل من الامة امة واحدة)) (١)

ويقول ايضا (ومن ابرز سمات الامة الرباط الاسري الذي يوحد العلاقات بين افرادها) يدير الكاتب حديثه في المقال حول بعض السمات التي تتسم بها الامة العربية وفي اثناء تناوله لهذا الموضوع نراه يمهد له بتمهيد توضيحي يبين فيه ان هناك لحظات تظهر فيها الامة مائلة للراي وقد زال عنها كل الغموض وخلصت من كل تناقض وتجمعت كلها حول نقطة مضيئة تلتقي عليها كل الخطوط التي ربما ظهرت في غير هذه اللحظات متفرقة متعارضة معتمدا بالتمهيد على شجرة القطن فكان شجرة القطن رمزا اتكا عليه الكاتب في توضيح فكرته وتمضي اللحظات في احداث فريدة في حياتها ، الازهار او الاثمار وهي اللحظات التي تعد بها شجرة القطن وتحقق عن طريقها وجودها والغاية التي منها تكشف عن كل ما استكن فيها من خصائص في الزهرة التي اطلعتها والثمرة التي اعطتها وكذلك الامة تمر حياتها عبارة حتى اذا كانت لحظات الازمات او الشدائد اختفت سماتها العرضية وظهرت سماتها الاصلية متجمعة متفقة تعبر عن نفسها في وضوح وجلاء وقد عاشت الامة اروع لحظاتها الكاشفة في حرب السادس من اكتوبر .

الشعر ومزاياه وخواطر عن الطبع والتقليد بعض الصور الوصفية مثل الالم واللذة ساعات متوعة ، مثل ابن الرومي والمتنبي وتوماس هاردي وشكسبير وايسن روسو .

الشعر في مصر . التجميل في الاسلوب والمعاني والصحيح والزائف في الشعر والنثر ، والشعر حول اعجاز القرآن ، حب المرأة الغربية ، النكتة ، حصاد الهشيم للمازني (١) وهو قريب من العقاد له مقالات متنوعة (تاجر البندقية ، رباعيات الخيام) الحقيقة والمجاز من النوع الانشائي الذي يتناول الانطباع وله (قد الريح) المازني (٢) وجه طائفة من مقالاته الى طه حسين للرد عليه (بشر المعري ، المرأة واللغة ، نشأة الشعر) ولقد ادت هذه الثقافة الفنية التي تمتع بها كبار كتاب تلك الفترة ادت الى تعدد وسائل التعبير والى اختلاف الاداء الفني بين اتجاهات مختلفة من ذلك بين الاتجاهين الرئيسيين الاتجاه الاسلوبي والاتجاه الموضوعي واخذ هذا الصراع بين الكتاب الى خلق حوار ادبي لو انه استمر الى يومنا هذا لانتج لنا ادبا راقيا ولازدهرت الثقافة العربية خير ازدهار .

ولقد راينا كيف ان المقال بدأ رحلته الطويلة مع التطور والتحرر من الاساليب القديمة الى الاساليب الحديثة فيستمر ويزداد تركيزا ودقة وقدرة على التحليل وبراعة في العرض مع طواعية اللغة وليونتها وسلاسة الصياغة والتخلص من اثقال الصنعة واذا ماردنا متابعة هذا اللون من النشاط الادبي المتصل بالمقال نراجع ما يلي (٣)(٤)(٥)(٦)(٧)(٨)(٩)...

كما ارتاد المقال كل المجالات واكتملت انواعه وتميزت ويمكن ان نلاحظ في هذا الصدد عدة نقاط :-

١-ان المقال اتخذ من الصحيفة والمجلة والكتاب احيانا وسيلة لنشره

٢-ان انواعه لايمكن حصرها لتنوع الميادين والموضوعات التي يجول فيها

٣-ان اسلوبه تنوع بين الاسلوب العلمي والادبي والعلمي المتأدب

٤-ان موضوعاته كانت تستجيب للتيارات الغربية في المجتمع وترتبط بها فتكثر المقالات السياسية مع الصراع السياسي والاجتماعي مع تيارات الاصلاح الاجتماعي . ولم يشغل المقال في ذلك الوقت حيزا كبيرا في الصحف والمجلات العربية وهو حيز يتسع لكل جوانب المعرفة والثقافة والاجتماع ويسود فيه الاسلوب الذي يتسم بسمات العرض العلمي مع جمال الاداء الفني .

ويلاحظ على اسلوب المقالة في تلك الفترة انها لم تتخذ شكلا واحدا بطبيعة الحال فقد اختلفت اشكاله بعض الاختلاف نظرا لاختلاف الكتاب وطبيعتهم وثقافتهم اولا ثم نظرا لاختلاف الموضوع المعالج ثانيا ، فحين يكون الكاتب ذا ثقافة فكرية يغلب على اسلوبه الجانب الذهني والقرب من القضايا المنطقية وما فيها من استدلال واحتجاج ، وحين يكون الكاتب ذا ثقافة فنية يغلب على اسلوبه طابع التصوير والخيال والشاعرية احيانا وخاصة اذا كان الموضوع على حظ من العاطفية يحتمل ذلك .

ومن هنا لم تختفي كل انواع المحسنات تماما بل ظل بعضها ياتي بين الحين والحين وخاصة السجع والتقسيم اللذان يكسبان الكلام موسيقى ويزيدانه تاثيرا وذلك حين ياتيان مطبوعين وفي مواقف تحتملهما ولمحمد عبده بعنوان خطاء العقلاء نص يقول فيه .

(ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا اكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة اخبار الامم واحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم افكار جديدة وتنبعث في نفوسهم همم

رفيعة تندفع الى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا على تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة ارباب المعارف وعلى ذلك تراهم يظنون ان وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسايروا العالم باسرة او الامة التي هم فيها بتمامها مقتضى ما علموه هو امر سهل مثل سهولة فهم العبارة عليهم وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من ايديهم والالفاظ في اسماعهم فيطلبون من الناس طلبا حاضرا ان يكونوا على مشاربهم ويرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العالم على طبق افكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضارات المفكرين اشخاصا معدودين . ويظنون ان افكارهم لعالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ووضعت اصولا وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من اسفل درك الشقاء الى اعلى درجة السعادة وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق وليس من غاية النص والكمال الان ينادي على الناس بارتفاع ارائهم تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وانهم كانوا اصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة لكنهم اخطاءوا خطاء عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ماحصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعداد الطبائع للانقياد الى نصائحهم واقتضاء اثارها) .

وانتقل الكاتب الى الخصائص الاصلية للامة فكان مما عرضه ان وحدتها تتحقق من خلال الممارسة وعن طريق المشاركة في الفعل الواحد لانها في اصالتها ترى من جد الامر في هذه الحالة مايدفع الفرد لان يخرج من اطار حياته الخاصة مشاركة الاخرين لما اجتمعوا عليه من عمل ، وهذه رابطة عضوية حيوية وهم فيها كفريق الكرة الذين يلتقون على غاية واحدة يعلمون لها بدافع ذاتي صادر من اعماقه ، ان العلاقة بينهم مع وحدة العمل المشترك ليست مجرد المصلحة وليست كالعلاقة بين ركاب سفينة اشرفت على الغرق فجمعهم الخطر على مواجهة الازمة ثم يزول الخطر بزواله ، فتزول هذه الرابطة انها علاقة الاسرة الوحيدة وهي علاقة وثيقة ممتدة قد تختفي في لحظات الحياة العادية ولكنها تظهر بوضوح في لحظات الشدائد على ان اهم سماته التصوير التوضيحي الدقيق الذي يقع في الامة كالمصابيح المضيئة تلقي اضوائها على الفكرة فتكشف عن دقائقها وخصائصها وجوانبها وهذه الظاهرة تظهر في النص من اوله الى اخره .

(ومن ذلك عندما تزهر الشجرة او تثمر كانت الى حطب الحريق اقرب منها الى شجرة القطن) ((تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطة واحدة))

والانتقالات في النص تمضي في منطقية عقلية تتسلسل فيها الافكار وقد اسلمت كل منها الى مابعدها ارتبطت بما قبلها ، ومما يصور النص عمق ثقافة الكاتب واتساعها الى المعارف الحديثة في جوانبها المتعددة وللمعارف القديمة كما في حديثة في النص عن قضايا قديمة كادارة الخير والشر وارادة الله تعالى والمدد الذي ياتيه من الله ثم يلون كتاباته تلوينا ويضفي عليها من الجمال الفني مايحملها الى النصر مع اقناعه بتاثيره في اشياء ممتعة . هذا النموذج ايضا كانت له الريادة والسيادة الذي استقرت عليه الحياة الادبية للمقال . ثم تطور المقال نتيجة لهذا الوعي الذي كان ينمو وينضج في تلك الفترة في النصف الثاني من القرن الماضي فقد وعى الادباء واقنعهم بكل مافيه من حاجات الى الاصلاح السياسي والاجتماعي والديني واتجه فريق من مثقفيهم الى الكتابة في تلك الجوانب الاصلاحية الكثيرة متخذين من الصحافة تلك الوسيلة الجديدة اداة لتوصيل ارائهم وافكارهم الى مواطنيهم وبدانوا يكتبون باسلوب قريب من الاسلوب التقليدي المزركش ثم اخذوا تدريجيا يتخلصون الى اسلوب الترسل فلم يكن من الممكن ان يتجهوا الى الجمهور الاعن طريق الصحف بتلك اللغة المتكلفة الملتوية الثقيلة لانها عاجزة عن علاج المشكلات ثم لانها لم تفهم من جمهور القراء ثانيا فكان لجوء الكتاب الى الاسلوب الغربي بصفة عامة .

والعربي بصفة عامة متفائل في طبعه وصبره معتمدا في ذلك على عدالة السماء ويحمل التبعات حين يراد لها ان يحملها والنص من الادب الاجتماعي الذي يشف عن نظرة تحليلية لبعض الخصائص الاصلية للامة ونرى الكاتب يهيء القاريء للدخول في الموضوع عن طريق تصوير حسي جذاب في دقة وعمق في الفكرة وفيه قرب ووضوح عن طريق المثل الذي عرضه لشجرة القطن .

ومن هذا التمهيد الذي تحدث عن لحظة الهدف والامل في هذه الشجرة والصفات العريضة التي تختفي عندها والصفات الاصلية التي تظهر معها دخل الى كيان الامة ولحظات الازمة التي كشف عن معدنها النقي وصفاتها الراسخة في اعماقه .

واذا احس ان القاريء معه بعقله وقلبه اخذ يسوق له هذه الخصائص البارزة في حياة الامة ، ومن ذلك (انها تلتقي على الوحدة من خلال العمل المشترك والفعالية

المنبثقة من الداخل وان الرباط بينهما رباط اسري وان العربي متفاعل يحمل تبعاته عن عقيدة راسخة وثقة واعية بالله وبإرادة الخير والقدر) وهو لاينتقل من سمة الى اخرى حتى يطمئن الى انه تركها واضحة لاتحتاج الى مزيد من الاقناع . ويطالعنا النص بملامح كتابه وسماته الفنية انه يسوق لنا اللفظة دقيقة مستقرة في موضعها فقد ادت الدلالة التي اراد لها ان تؤديها في يسر ووضوح وجمال . وتطالعنا هذه الظاهرة في مثل التوتر باقواله الكاشفة وخيالاته الهادئة تجمع الى سماتها متانة وقوة وتطول معها الجمل في عذوبة ودون التواء ومع رعاية لروح العصر في التعبير من مثل اشارتة بحيث تتبلور فيها اخلص خصائصها وهو يجاوز حدود نفسه ليفتح على الاخرين (الرابطة الحيوية العضوية) رباط الفاعلية المنبثقة من الداخل ... الخ) وبذلك تتضح الملامح الحقيقة والسمات الفنية في النص عن مقدرة الكاتب بهذه اللغة البسيطة لقيت صدى واسعا لدى جمهور القراء .

المبحث الخامس

المويلحي كاتبا

يقترب المويلحي في حديث عيسى ابن هشام وحافظ ابراهيم في اساليب سطيح من اشكال النشاط القصصي الذي اعترف به كبار مثقفي تراثنا وهو شكل المقامة مرتبطا بالمقالة .

وكان طبيعيا ان لايعترض كتاب الايام لطه حسين نتيجة لذلك الى نفس المخاوف والمحاذير التي تعرض لها مؤلف (رواية زينب) ((محمد حسين هيكل)) والتي جعلته يمتنع عن كتابة اسمه عليها .

كما نستطيع ملاحظة ان ملامح الترجمة الذاتية سيطرت على كتاب الايام ثم اخذت هذه الملامح تخف تدريجيا ، وفي خط متصاعد لتنقل السيادة الى عودة الروح لتوفيق الحكيم الى فن الرواية فلعل هذا التصور هو الذي يحملنا على دراسة كتاب الايام .

المويلحي كاتبا :-

ويعد المويلحي بيك ابن سيد ابراهيم بيك ت ١٩٢٣م صاحب اول محاولة تجديد في فن المقامة والرواية في تصوير الاخلاق والاحوال في البيئة والعصر حيث دخلت المقامة في عصره طورا جديدا فجاءت مقامته وقد غلبت عليها روح التأمل الناقد ملمة

بما ينبغي ان تكون عليه المقامة على حد قول - د- شوقي ضيف (١) . (انها ليست قصة انما هي حديث ادبي بليغ وهي اقرب الى الحيلة منها الى القصة وللمويلحي مجالات واسعة في كتابة الرواية والمقامة والمقالة تاثر بجمال الدين الافغاني وحرر في جريدة مراة الشرق (٢) .

ووجدت نفسه بين انفس الكتب بين الاثار الشرقية والغربية وكان كثير التردد على الجراند والمجلات في القاهرة الحرة وغيرها وتمكن من نسخ رسائل الجاحظ ورسالة الغفران ونتف من الادبين العربي والغربي بين قصيص وحكم وامثال ونوادر وعنى بتدوينها في السجلات الكبيرة ثم اشترك في تحرير جريدة المنبه وحين عاد الى القاهرة من باريس اشترك في تحرير جريدة القاهرة الحرة اليومية وظل يكتب فيها حتى اوقفها صاحبها بناءا على سفرة الى الاستانة بدعوى من السلطان عبد الحميد تابع مقالاته في الصحف المصرية فنشر سلسلة مقالات في المقطم وظل يوالي الكتابة مع والده حتى عين مديرا لمديرية الاوقاف ١٩٠١م لخمسة اعوام . استقال واثر العزلة التي اختار لها من بين تلامذته ومريديه طائفة عاونته على رفع شأن اللغة العربية ورفع بمستوى الكتابة في ذلك الحين الى درجة رفيعة وكان من بين الذين شاركوه عبد اللطيف البشري وعبد الحليم المصري واحمد الكاشف والعقاد ومحمد مصطفى (٣) .

قال المويلحي ((اهدي كتابي هذا أي حديث عيسى ابن هشام الى المرحومين الاديب الوالد والحكيم جمال الدين الافغاني والعالم محمد عبده واللغوي الشنقيطي والشاعر البارودي وهؤلاء الذين انعم الله عليهم وهم الذين تادبت بتأدبهم واخذت عنهم)) وهو يترك اهم مولفاته وهي (رسائل في الاخلاق في علاج النفس) نشهد له في الزعامة القلمية في عصره وتضعه في جمهرة الكتاب الشرقيين والغراب في مصاف حملة الكتابة النثرية في ذلك العهد . وقد افاد حديث عيسى ابن هشام الدارسون في البلاغة فائدة كبرى .

في الصيغ الطريفة وقوة التعبير وجمال في الاداء وتدبير الوان الاحتجاج لطرفي الموضوع الواحد وجاء الحديث بعد ان صارت محاولات التجديد على طرفي نقيض . فريق حاول تمثل الشكل القديم واخر جنح الى التقليد الغربي وفي وسط هذا الجو المشحون بوجهات النظر المتعارضة جاء حديث عيسى ابن هاشم ليوافق بين تلك الوجهات المختلفة .

ان هدفه من حديثه هذا ان يشرح اخلاق العصر واطوارهم ان يصف ماعليه الناس من النقائص بحيث يتعين اجتنابها والفضائل التي يتعين العمل بها وهو يبداء حديثه بتأملات فلسفية عن هذا الزمان الخ ... هذه التأملات الفلسفية التي يرى فيها - د - شكري عياد (١) . يرى فيها اثرا في شكل الكتاب وفحواه وينقسم الكتاب الى رحلتين احدهما زمانية والاخرى مكانية وقد استطاع جمعهما في فصول لكل فصل وحدته المستقلة التي تشكل عملا قصصيا قصيرا له وحدة بناء خاصة به تتمثل في تطور الاحداث منذ لحظة الابتداء حتى النهاية ، وليس من موضوع التعرض الشامل لكتاب عيسى ابن هشام فهذا حري بأن يكون بحثا مستقلا تفيض فيه النواحي الفنية ، وتأثرت هذه الاعمال بالاستكشافات القصصية التي ظهرت في الغرب وكانت تحاول هجاء العادات والتقاليد والطبقات الاجتماعية . وربما برز هذا التطور من خلال الترجمات التي قام بها محمد عثمان جلال ورفاعه الطهطاوي وعلي مبارك وكانت هذه الاعمال تحاول ان توفق بين نشأة المقامة وبين الشكل الروائي الجديد ومع زيادة النزعة الاصلاحية ، وقد بدء ظهور التأليف الروائي مبكرا حيث صاحب تلك المحاولات التجريبية التي تمثلت في النزعتين التي اشرنا اليهما نزعتا الاحياء والترجمة فقد سمحت هذه المحاولات بالفعل لتتبع الانتاج الفني لهذا الفن الجديد .

كما كان للصحافة دور كبير للرواية والمقالة (٢) . وعرضها على القاريء تلك الرواية التي لاقت رواجا في عقول القراء فاصبح التأليف الروائي سوقا رائجة لكل من يستطيع ان يحكي حكاية للناس تتخللها علاقة غرامية او تحفل بمغامرة اوبهما معا تفند هذه البديهيات او تصل الى الخلاص الشعبي باسلوب بنائها وكان كتاب هذه الروايات اكثر اتصالا بالواقع الاجتماعي واكثر اتصالا برواية الغرب وقد صدرت هذه الاعمال عن تاثير مباشر للدعوة الاصلاحية التي كانت سائدة على الحياة .

وتمكنت هذه الاعمال من الاحساس بالانسان والاقتراب منه ومحاولة الاصلاح والتخلص من الجوانب التي علقت بلغة الجيل السابق ، ثم تظهر رواية زينب لمحمد حسين هيكل واستطاعت ان تكون اشمل روايات هذه المرحلة الريادية . ربما ذلك لمؤلفها .

وتاثير هيكل بتلك المفاهيم السياسية كمفهوم الحرية عند روسو انذاك متاثرا بدعوة خاله محمد عبده بالقيم العربية وان تكون مصر للمصريين وهو يصور الريف

تصويرا دقيقا وللاديب ذات يعبر عنها باللغة العامية في الرواية نتيجة لدعوى لطفي السيد (٣) .

حديث عيسى بن هشام تداخل بين المقامة والمقالة والرواية فاين يضعه الدارسون بين هذه المجالات افاد الدارسين كثيرا من البلاغة العربية في الصيغ الطريفة وقوة التعبير وتدبير الوان الاحتجاج لطرفي الموضوع الواحد .

وجاء الحديث بعد ان صارت محاولات التجديد على طرفي نقيض ، فريق حاول تمثل الشكل القديم واخر جنح للتقليد الغربي ، وفي وسط هذه الجو المشحون بوجهات النظر المتعارضة جاء حديث عيسى بن هشام ليوفق بين تلك الوجهات وهدفه من حديثه هذا ان يشرح اخلاق العصر واطوارهم وان يصف ما عليه الناس من النقائص التي يتعين اجتنابها ، والفضائل التي يجب التزامها وهو يبدا حديثه بتأملات فلسفية عن هذا الزمان ويقول ((وكنت احدث نفسي بين تلك القبور وفوق هاتيك الصخور بغرور الانسان وكبره وشموخه بمجده وفخره واغراقه في دعواه واسرافه في هواه)) الى اخر هذه التأملات الفلسفية التي يرى فيها - د - شكري عياد اثرا في شكل الكتاب وفحواه .

ويرى د. علي الراعي في كتابه ((دراسات في الرواية المصرية)) (اننا يتأملنا برواية المويلحي نجد انها تقوم اساسا على مقابلة عقلية بين عقلية الباشا الذي قام من قبره ليجد الدنيا تغيرت من حوله فماتت قيمه الجميلة التي كان ينبغي ان تظل حية وقامت قيم تتصادم مع عقلية الباشا القديمة وبين عقلية المعاصرين الجدد وبذلك يخرج لنا نقده الاجتماعي الطريف)

اسلوب المويلحي :

يمتاز اسلوبه بتجويد الصياغة والميل الى البديع ويهتم بجماليات اللغة في ذاتها كما نلمح فيه الموسيقى الصوتية وتوافقها في توالي المقاطع (فوجدنا في ساحتها اقوا ماذوي وجوه مكفهره والوان مصفرة وانفاس مقطوعة واكف مرفوعة) تمثل في الميل الى الانسياب الحريص على توصيل الافكار ، واستطاع ان يتحرك باللغة قليلا في محاولة لتقديم صور خارجية للشخصية او المواقف بالرغم من اهتمامه بالصنعة اللفظة .

استطاع ان يقدم باستغلاله للبناء الشكلي للمقامة شكلا قصصيا اكثر نضجا من المقامة العربية تمثل في محاولة لتطويع اللغة بالانتقال بها الى ان تكون اداة توصيل كما نرى في الحوار الذي دار بين النائب وزائريه في المحكمة .

المبحث السادس

نبدأ سؤالنا لماذا زينب ؟ التسمية واسباب التاليف ؟

ننطلق من قول الكاتب ((زينب ثمرة الحنين الى الوطن ، ومافيه صورها قلم مقيم في باريس ، يلوذ بحنينه الى مصر على الرغم من اعجابه بباريس وبالادب الفرنسي)) (١) من هنا نمسك بداية الخيط التي اشار اليها هيكل ، انها ثمرة البعد والحنين الى الوطن ، ولابد ان تكون زينب اسما حقيقيا او رمزيا فهي بكل الاحوال امراة من مصر ، ترى من هي زينب ؟ انها عزيزة ابنة عمه التي يحرم عليه ذكر اسمها في كتاب ذلك الفتى الريفي الذي يخاف على ضياع حبه فيظطر الى اخفاء اسمها ، زينب او عزيزة الفتاة المتحررة التي حالت الظروف بينها وبين من احبها بالزواج وكانت اخيرا من حصة ابراهيم التي لم تفلح معه وقد خسرته كما خسرت حبيبها الاول حامد وكانت التقاليد تلعب دورا كبيرا في هذا الحرمان حتى انتهت الى نهاية مأساوية مفجعة (٢) مؤثرات كتاب زينب !! كلنا يعلم بذلك التاثير الذي انعكس على الكاتب هيكل خاصة من الادب الفرنسي وتلك الدعوات الاصلاحية التي تزعمها روسو في نهاية القرن التاسع عشر وقد افاد من تزعاته الكثيرة في معالجة المفاهيم الانسانية كالحرية والمساواة ونقض التقاليد وقد صور الكاتب الريف المصري على حقيقته وهنا يقترب كثيرا من (روسو) في نقل واقعيته مع الاستخدام المباشر للهجة العامية اسلوبا مباشرا . (٣) مع تاثر الكاتب هيكل بزميله قاسم امين صاحب الكتابات الكثيرة المدافعة عن حقوق المراة فهو يتخذ فكرة مشابهة لافكار امين في طرح هموم المراة مما يتعلق بحياتها وخاصة زواج الاجبار والسوال الذي يطرح نفسه ؟

كيف دخل هيكل الى روح زينب ؟

كيف صنعه لها تمثالا روائيا لايمحى على امتداد الايام ، لقد رسم لها صورة الفتاة الريفية الساذجة المصابة بمرض السل ولما لهذا المرض الخطير وخاصة في القرن المنصرم من دور مؤثر ومخيف فما ان يسمع المرء بالاصابة بهذا المرض حتى يبداء الشك والخوف يحاصران روحه فيدب اليأس وهذا المدخل شبيه لما تنتهي به الروايات الفرنسية كوسيلة للتخلص من الحب والفشل بعدم الوصول الى الرغبات الجامحة وقد افاد هيكل من نقاط شكلية حملتها الرواية لابد وان نتوقف عندها وهي :-

١-وصف الريف : ثمة لوحات وصفية بديعة حملتها زينب في تشخيص ذلك الريف المصري المشهور بالمزارع (٤) . ((انساب المسكين بين المزارع ، حتى جاء الى شاطيء الترعة واخذ مقعدا في ظل شجرة صغيرة وهنا نلحظ بدقة التشخيص المكاني للريف حيث المزارع اكبر سعة ثم الشاطيء اصغر منها وحتى يصل الى الوحدة المكانية الصغيرة ((الشجرة)) وبعد المدخل الوصفي يسترجع عبر المنلوج الداخلي مفكرا بالطريقة التي يخرج بها زينب من هؤلاء الذئاب المحيطين بها وهكذا يصرف وقته متمردا على صحة الترهيب ، انها مجموعة احلامية الذائبة مع قطرات ذلك الشاطيء ((حامد يفكر كيف يتسنى له ان يكون الى جانب عزيزة وليس عليها من رقيب ، وان يبث لها ما في نفسه)) وكل هذه الخوالج والعواطف المتأججة تفرش اذرعتها (١) مع بساط ذلك المكان وهو يرجع بحلمه ساخرا ضاحكا على عدم تحقيق شيء من الاماني والاحلام وخير ما يكفل وضوح ذاتية الاديب في ادبه ان يتصل بما يكتب بعقله وقلبه وكل حياته وليس ذلك بمستطاع على اكمل وجه الاحينما نصل حياتنا وحياة ابناءنا والبيئة التي انبتتنا والوراثة الكامنة فينا ونصل بذلك حاضرنا بماضينا (١) وهنا يظهر لنا هيكل (٢) . مرتبطا بالكلاسيكية التي عاشها في ذلك الصراع المحتدم بينها وبين الرومانسية وهو يشهد تلك الرومانسيات المفعمة بالوجدان مثل كتابات زولا وفلوبير (٣) وقد اشار الدكتور سلام الى تاثر هيكل بالكلاسيكية وقوانينها ومدى تأثيرها على الاخلاق والواجب ومراعاة حوادث الطبقات والتضحية بالعاطفة حفاظا على تلك الاصول والقواعد العامة التي خلقها العرف وتعارف عليها الناس وسنها المجتمع فهناك اكثر من وضع يثبت مدى تأثر هيكل بروسو وهنا لابد ان نتوقف ونحن نشخص الوصف للرواية عند رأي الدكتور بدوي ((أن هيكل في روايته اقرب الى مزاج الرومانسيين منه الى أي مذهب اخر ، فقد لاحظ ان الوصف في زينب يأتي مستقلا عن موضوع الرواية ذلك لان هيكل متأثرا بموقف الرومانسيين منها وبتعلقه ببلاده كان حريصا على وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا وعلى ان يكون وصفه شاعريا جميلا مستمدا من ادبه وسعة خياله وشدة حنينه الى الوطن . وعلى الرغم من هذا الوصف المتناقض مع طبيعة هذه الرواية ذات النزعة المأساوية تبدو اشبه بمنظر بهيج بمسرحية محزنة)) (٤) وهنا يبدو الامر واضحا لايحتاج الى جهد فكر فلو عملنا على رفع مايتعلق بالوصف فقد تبقى الرواية على ثلث فقط ، لانه اتكأ تماما على هذا الغرض ولانعتبره شعرا كما يحصل في الشعر بل انه اقحام

متناسق مع الاحداث معبر عن ارتباط الشخصيات بالمكان ويؤيد رأينا يحيى حقي حين قال (ان الرواية تجعلك تعيش معها بالريف وتشم رائحة اهله وحيوانه من خلالها)) ويرى الدكتور طه وادي اثر الوصف مهارة وابداع (٥) قائلا ((ان الوصف في زينب لاينم عن رغبة هيكل في اثبات نوع من المهارة اللغوية والقدرة على الوصف يغذيه التاثر الشديد في حب الطبيعة عند الرومانسيين)) (٦) . والحق ان موضوع الوصف في زينب يثير وجهات نظر متباينة على الدوام ، ومن تلك الاشياء ما ذكره الدكتور علي الراعي وهو يدرس الرواية المصرية فقد اعاب على هيكل جمود الوصف بعد ان درسنا رواية زينب لابد ان ان نتوقف عند النتائج الاتية :-

١- ان الرواية كتبت في ظروف مصر وكانت قاسية وقد اعتبرت بداية الرواية العربية لما حملته من افاق فنية وملامح رائدة في مطلع القرن الماضي .

٢- تعرضت الرواية لعدة اراء للنقاد وكل منهم يرى فيها حسنات ويرى فيها سيئات ومع هذا كله تبقى زينب في مقدمة الروايات العربية .

٣- عكست الرواية تاثر الكاتب العربي محمد حسنين هيكل بزعيم الدعوات الاصلاحية روسو .

٤- تاثر الكاتب هيكل بقصص زولا وخاصة رواية الارض وقد قلده فيها تقليدا كثيرا .

٥- ظهر هيكل في روايته مرتبطاً بالكلاسيكية وهو يصر على تأكيده الأخلاق والتضحية حفاظا على الواجب .

٦- ظهر هيكل وصفه الذي بلغ ثلاثة ارباع الرواية صاحب مزاج رومانسي وكانه يشتغل عن موضوع الرواية الاساس فيكون هذا الوصف مهارة لغوية وانما قدرة أبداعية

٧- أعابة بعض النقاد على هيكل تقليده لزولا وجهود الوصف وثقافته في تشخيص القيم والعادات

٨- ظهرت في الرواية رؤى نفسية عبرت عن حقيقة الانسان والوازع الحقيقي للخلاف بين الرجل والمرأة قد تكررت تلك الصور وحملت صورة الاباحية متاثرة برواية الارض

٩- ثمة رؤى فلسفية ونفسية جاءت في الرواية ركز فيها الكاتب في الحوار والسر وفعل الظواهر كالتسبيح والصلاة والذهاب الى المسجد وخشية العقاب والتعبير عن طبائع النفوس والاحساس بالذنب

١٠ - وجدنا ان رواية زينب في الميزان النقدي جاءت ذات عدة نزعات كلاسيكية ورومانسية وواقعية وقد كانت كلها تنهل من زولا وروايته وبهذا نكون قد توصلنا الى ما نصبو اليه في دراسة وتحليل تلك الرواية ومن الله التوفيق.

المصادر

١- الايام / د- طه حسين
٢- ادب المقالة الصحفية / د- عبد اللطيف حمزة /ج٤ القاهرة /دار ط١ المحامي / الاعتماد ط٢ /الجريدة التجارية ط٣ / الكتاب المصري /١٩٦٤
٣- الادب العربي المعاصر / د- شوقي ضيف / دار المعارف / ١٩٧٢
٤- البطل المعاصر في الرواية المصرية . امجد ابراهيم الحواري / بغداد / ١٩٧٦
٥- تطور الرواية العربية / عبد المحسن طه بدر / القاهرة / ١٩٧١
٦- تاريخ اداب اللغة العربية / مصطفى صادق الرافعي
٧- حديث الاربعاء / د- طه حسين
٨- حصاد الهشيم وقد الريح / المازني
٩- خطاء العقلاء / محمد عبده
١٠- دراسات في الادب الحديث والمعاصر / د- محمد زكريا عنان / مطبعة السعادة /مصر / ١٩٧٠
١١- دراسات في الفلسفة العربية / محمد زغلول سلام / الاسكندرية /١٩٧٣
١٢- دراسات في حضارة الإسلام / هيكل / نرجمة العربية / بيروت /١٩٦٤
١٣- رواية زينب محمد حسين هيكل /١٩٦٩ ط/ دار المعارف / القاهرة
١٤- فجر القصة المصرية / مجموعات المكتبة الثقافية / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧٣
١٥- في اوقات الفراغ / محمد حسين هيكل
١٦- في الادب الحديث / عمر الدسوقي
١٧- فن المقالة / محمد يوسف النجم
١٨- القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث / عبد الحميد أبراهيم /ط / القاهرة /١٩٧٣
١٩- مقالات في النقد الادبي / د. محمد مصطفى هدارة /مصر /دار القلم /١٩٦٤

٢٠- مطالعات في الكتب والحياة / عباس محمود العقاد
٢١- محمد حسين هيكل / حياته وتراثه الادبي / دار المعارف / القاهرة /١٩٦٣
٢٢- مقومات القصة المصرية الحديثة / محمود حامد شوكت / مصر / ١٩٧٤
٢٣- هيكل في ثورة الادب / الطبعة الثالثة / القاهرة / ١٩٦٥

الهوامش

١- مختار الصحاح لمحمد بن بكر الرازي
٢- معجم الوسيط ج٢
٣- فن المقالة الادبية
٤- فن المقالة محمد يوسف النجم
٥- تجديد الفكر العربي
٦- مع العقاد
٧- في النقد الأدبي الحديث محمد غنيمي هلال
٨- في الادب العربي الحديث / عمر دسوقي
٩- مصطفى صادق الرافعي كاتب عربيا واسلاميا
١٠- أدب المقالة الصحفية / عبد اللطيف حمزة ج١
١١- مقالات /د. علي جواد الطاهر
١٢- الأدب المعاصر في مصر / د. شوقي ضيف
١٣- المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر / أنور الجندي
١٤- المنفلوطي حياته وأدبه / محمد أبو الانوار
١٥- النظرات / المنفلوطي /ج٣
١٦- أسواق الذهب / أحمد شوقي
١٧- صهاريج اللؤلؤ / توفيق البكري
١٨- حديث الأربعاء / د. طه حسين
١٩- في أوقات الفراغ / محمد حسين هيكل
٢٠- مطالعات بين الكتب / عباس محمود العقاد